الفصل التاسع

هجرة العقول من منظور أمريكي

"علينا أن ننسي الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل فالحرب العالمية القادمة ستكون علي رأس المال البشري وستخسرها أمريكا بالتأكيد".

ديفيد هينان

"إن الهجرة العكسية للعقول اللامعة ستهبط بأمريكا إلي مرتبة دول العالم الثالث، كما أنها ستجعل منها **عبدة** للأرصدة الأجنبية ونظم القروض والمعونات التي كانت تتقنها يوماً ما".

مايكل بوياجيان

تمهيد:

ظلت الولايات المتحدة الأمريكية لعقود قبلة ومنارة ومركز إشعاع جاذب لأمل الكثير من علماء العالم ومبدعيه، حيث تتوافر بأمريكا معظم العوامل الجاذبة لهؤلاء العلماء من بيئة علمية خصبة تتوفر فيها كافة أدوات البحث العلمي، ومناخ سياسي ديمقراطي شبه مثالي، مع توفر حرية الرأي والفكر والإبداع، ناهيك عن التشجيع الدائم للعلم والعلماء من قبل مؤسسات الدولة والقائمين عليها، هذا بالإضافة إلي العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمعرفية والتكنولوجية الجاذبة التي جعلت من أمريكا معملاً حقيقياً متقدماً لعلماء العالم الذين أسهموا إسهاماً جلياً ليس في جعل أمريكا قوة عظمي Great Power فحسب، بل في جعلها القوة الأعظم Hyper Power في بداية التسعينات من القرن الماضي، عقب تفكك الإتحاد السوفيتي السابق...القوة الأعظم التي تقود النظام العالمي الجديد فوق الأرض وفى الفضاء، خاصة بعد تفكيك محطة الفضاء السوفيتية أو الروسية "مير" لتنفرد أمريكا وإلي حد كبير بقيادة العالم والسيطرة عليه علمياً وتكنولوجياً واقتصادياً وعسكرياً، الأمر الذي زاد من طموح القادة والساسة الأمريكيين لإحكام قبضتهم علي العالم وفضائه، ووضع يدها بالقوة العسكرية الجبرية أو بالقوة الناعمة Soft Power علي منابع الخير والثروة في عالم يموج بصراعات وفتن من أقصاه إلي أقصاه.

ومع ذلك، نجد أن الأمر ليس بهذه البساطة، فأمريكا أصبحت مهددة، كما يقول الكاتب السياسي ورجل الاقتصاد الأمريكي "ديفيد هينان"، بفقدان قدرتها التنافسية، ولم تعد الأرض الموعودة وقبلة العلماء كما كانت من قبل، ويرجع ذلك إلي الهجرة العكسية للعلماء من أمريكا إلي بلدانهم الأصلية، بل يرجع الأمر إلي أبعد من ذلك...حيث يهجر بعض العلماء الأمريكيون أنفسهم أمريكا حالياً للعمل في دول مثل: الهند، والصين، وغيرهما من الدول الناهضة والواعدة للعديد من الأسباب. ومن ثم كان النداء الشهير "لهينان" محذراً من آثار الهجرة العكسية للعقول من أمريكا وخطورتها في كتابه "هروب رأس المال Flight Capital" الصادر عام ٢٠٠٥، قائلاً: "استيقظي يا أمريكا، علينا أن ننسي الإرهاب، وأسلحة الدمار الشامل، فالحرب العالمية القادمة ستكون علي رأس البشر، وأن أمريكا ستخسرها بالتأكيد".

ويذهب "مايكل بوياجيان Michael Boyajian" إلي أبعد من ذلك في مقاله في صحيفة "نيويورك بولتكس New York Politics " بتاريخ ٢٠١٠/٧/٨، حيث يشير إلي أن المشكلة الأساسية تكمن في أن أمريكا ستهبط إلي مرتبة دول العالم الثالث بسبب الهجرة العكسية للعقول أو ما يسمي بنزيف الأدمغة...ويستطرد "بوياجيان" في وصفه للمأساه الأمريكية بسبب الهجرة العكسية للعقول، قائلاً:

"في الوقت الذي يضرب فيه الأمريكان صدورهم من جراء الحروب القائمة و (تهديدات المهاجرين) نجد أن المثقفين الأمريكيين يتسربون عبر البحار إلي دول أخري تدفع لهم أقل مما تدفعه لهم أمريكا، إلا أن كلفة المعيشة في الدول المضيفة لهم أقل إذا ما قورنت مع كلفة المعيشة في أمريكا، وأن هؤلاء المهاجرين يعيشون في بلاد المهجر كالملوك، الأمر الذي يجعل من عودتهم إلي أمريكا أمراً صعباً."

ويشكك "بوياجيان" في ما يزعمه السياسيون الأمريكيون أن أمريكا لا تزال أعظم قوة علي وجه الأرض، كما يؤكد علي أن أمريكا لن تستطيع أن تعيش علي كسبها أو دخلها وحدها...وأنها ستصبح "عبدة" للأرصدة الأجنبية...وأن الشعب الأمريكي نفسه سيصبح سجيناً لنظام القروض والتسليف الذي كان يتقنه يوماً ما، وذلك لأن الشعب الأمريكي لن يمتلك القوة العقلية أو الطاقة والقدرة العقلية التي يمكن أن تجذبه وتُخرجه من الحفرة التي سقط فيها، خاصة الطبقة المتعلمة التي تعيش

الآن خارج البلاد.هذا بالإضافة إلى أن باقي الشعب منوماً مغناطيسياً في آخر فضائحة المشهورة، ويقضى معظم وقته في مشاهدة التلفاز ملتهما عبوات الشيبسي.

وفي كتابه "آلة الزمن The Time Machine"، يري "إيتش جي ويل H.G.Well" أن الشعب الأمريكي في سباق صعب تحت الأرض. فهذا هو مستقبل الولايات المتحدة الأمريكية الذي يختلف كثيراً عن المستقبل الذي عرفته في نهاية الستينات من القرن العشرين في عصر امتياز التعليم عندما كانت أمريكا "مقر ومقصد للذكاء والأذكياء يحكمه العلم"، عندما استنزفنا أدمغة الدول الأخرى وجففنا منابع الطاقة العقلية فيها وحلمنا الحلم الأكبر.

أما الكاتب والصحفي الأمريكي "أديسون ويجن Addison Wiggin" فيؤكد في مقاله تحت عنوان "نزيف الأدمغة الأمريكية" المنشور في ٢٠١٠/٣/١٥ أن أمريكا تفقد الآن معظم الشباب الموهوبين والواعدين للعمل في مقاولاتها الصناعية من بين أولئك الذين يسافرون للدراسة بالولايات المتحدة الأمريكية. ويؤكد ما سبق أن أكده أستاذه "فيفيك وادهوا Vivek Wadhwa" من خلال دراسة مسحية له مع أربعة من زملائه الباحثين. "أن الولايات المتحدة تواجه تجربة نزيف الأدمغة لأول مرة في التاريخ". ويؤكد أن رأس المال يذهب أينما تذهب العقول. كما يضيف أن أمريكا التي كانت قبلة ومنارة الأمل...وأرضاً للفرص لم تعد كذلك. وأن هؤلاء الذين ساعدوا في إنشاء "جوجل Google، وإى باى eBay، وإنتل Intel"، وغيرها، يتجهون اليوم لبلادهم عائدين لإنشاء شركات مماثلة جديدة هناك. ويحفز المؤسسات الأمريكية علي الاستثمار الأفقي هناك -في تلك الدول مثل: الهند والصين وغيرهما- فيما وراء شواطئها، وأن هذا الوقت قد يكون المناسب للبدء في ذلك. مؤكداً علي أنه لا توجد فرصة أفضل من الآن للبدء في ذلك. لأن "جوجل الغد" سوف توجد هناك فيما وراء الشواطئ الأمريكية.

ويثمن العالم النوبلي "د. احمد زويل" ماقاله العالم الأمريكي "جيمس كونانت" في حديثه إلي صحيفة نيو يورك تيمز حيث يقول "كونانت": " هناك وسيلة واحدة ومؤكدة وثابتة لدعم ومساعدة تطوير العلوم وهي اختيار الموهوبين من الرجال والنساء ودعمهم بقوة ، وتركهم يديرون أنفسهم بأنفسهم دون وصاية خارجية."

ولما كان الأمر كذلك، فإننا سنحاول في هذا الفصل، إلقاء الضوء بشكل موجز علي الهجرة العكسية الأمريكية وخطورتها، مع الأخذ في الاعتبار ما ورد من آراء وكتابات للساسة والكتاب والمفكرين حول الظاهرة وأثرها علي الدولة الأعظم المهددة في كيانها بسبب نزيف أدمغتها.

أمريكا تفقد قدراتها التنافسية

يؤكد رجل الاقتصاد والسياسة الكاتب الأمريكي "ديفيد هينان David Heenan" في كتابه (هروب رأس المال Capital Flight) الذي يدق فيه ناقوس الخطر محذراً من الهجرة العكسية لألمع العقول البشرية الأمريكية، قائلاً: "علينا الآن أن ننسى الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل فالحرب العالمية القادمة ستكون على رأس المال البشري وأن أمريكا ستخسرها تماماً". وقد وفر المهاجرون لسنوات مدداً ثابتاً للقوى والعقول البشرية للولايات المتحدة، بداية من "ألبرت أينشتاين" وحتى "ألفريد هتشكوك". وقد قاد هذه المسيرة تياراً منتظماً من الوافدين الجدد ذوي الحيوية الخلاقة والمهارة العالية من التواقين لنسيم الحرية دفة التقدم في أمريكا.

وتستمر الدولة حالياً في الاستفادة بشدة من كونها عنصر جذب للأفراد المبتكرين والطموحين الذين يحفزون الاقتصاد ويخلقون الثروة ويحسنون من مستوى المعيشة بشكل عام. فالمهاجرون الصينيون والهنود يديرون قرابة ربع المؤسسات التكنولوجية في وادي السليكون كما أن ثمانية من إجمالي أحد عشر شخصاً حصلوا على جائزة نوبل في الكيمياء والفيزياء في السنوات الثلاث الأخيرة ولدوا في دول أخرى غير أمريكا و٤٠٪ من طلاب الدراسات العليا في مجالات التكنولوجيا من الخارج، وأكثر من نصف حملة الدكتوراه من العاملين في المجال الهندسي، و٤٥٪ من علماء الفيزياء والحواسب والرياضيات هم أجانب بالمولد. هذا بالإضافة إلي أن ما يقرب من ثلث عدد معلمي الفيزياء وربع عدد الطبيبات الإناث مهاجرين من دول أخرى.

إلا أنه لم يعد بوسع الولايات المتحدة الأمريكية اليوم أن تحيا على هذا النبت الأجنبي المنقول إلى تربتها. فمنذ بداية التسعينات من القرن العشرين بتنا نسمع صوت الجذب القوي للعقول إلي أوطانها الأصلية، حيث تحسنت الدول الأصلية للمهاجرين

كثيراً على المستويين السياسي والاقتصادي مما حدا بأفضل والمع الأمريكيين إلى العودة إلى أوطانهم الأصلية بحثاً عن أرض موعودة جديدة.

عودة العلماء الأجانب إلي أوطانهم بأعداد هائلة:

ويستطرد "هينان" في وصفه لعودة العلماء لأوطانهم قائلا:

ودع "إدوارد تيان" مدينة لوبوك في تكساس منذ عقد مضى وودع شاحنته وودع ركوب الخيل وسبع سنوات من دراسة الأعشاب الثعبانية البنية عائداً إلى بكين، حاملاً معه شهادة دكتوراه في تكنولوجيا البيئة من تكساس وشركة برمجيات انترنت صغيرة كان قد شارك في تأسيسها في دالاس. وقد استمرت تلك الشركة المسماة "آشيا إنفو" لتصبح أهم شركة صينية في مجال النظم المتكاملة وخلق أكثر من ٧٠٪ من البنية التحتية لشبكة انترنت الصين حتى أنها صارت مدرجة على قائمة مؤشر نازداك. ويقول "تيان": "لقد رغبت في القيام بشيء لتغيير حياة الناس خلال السنوات الخمس القادمة وليس خلال القرنين القادمين" (وفي أعقاب نجاح شركة "آشيا إنفو" مضى "تيان" في تأسيس عملاق الاتصالات في الصين تحت اسم "تشاينا نتكوم" حيث يشغل منصب المدير التنفيذي لها).

وبعد قرون من استيراد العقول باتت أمريكا الآن مصدراً للعقول. حيث يعود قرابة ٢٠٠ ألف أجنبي، معظمهم من التقنيين النابهين مثل دكتور "تيان"، إلى أوطانهم الأصلية كل عام. وقد أدت الهجرة العكسية للعقول، والتي نشأت جزئياً من ما تقدمه الحكومات الوطنية في الدول الأصلية من حوافز، إلى ازدهار جنان علمية في كل مكان من جنوب آسيا وحتى اسكندنافيا.

وفي ظل رحيل "تيان" وكثيرين غيره أصبح من الواضح أن أرض الفرص تدير ظهرها للقادمين الجدد. ففي أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ الإرهابية سعى كثير من الأمريكيين إلى سحب الجسر من أمام الغرباء، حيث تقلص عدد تأشيرات العمل والدراسة التي تصدرها مصلحة المواطنة والهجرة الأمريكية وتم تطبيق شروطاً صارمة على الوافدين الجدد. ولم يكن الرأي المناهض للهجرة ليظهر في وقت أسوأ من هذا. وقد أظهرت دراسات تلو دراسات أن الولايات المتحدة تواجه أزمة طاحنة

في الأيدي العاملة، وخصوصاً العمال الموجهين معرفياً. وينطبق نفس الأمر على ألمانيا واليابان وغيرها من القوى الصناعية. ويشير "هينان" إلي أنه في حين أن كثير من الدول تمد بساط الترحيب للأجانب الموهوبين فإن الولايات المتحدة تتخذ الموقف المعاكس. فوفقاً للوضع الراهن سوف تتحول أمتنا التي قامت على أكتاف المهاجرين إلى أمة من المهاجّرين.

أمريكا لم تعد الأرض الموعودة:

ولم تعد الولايات المتحدة وحدها الأرض الموعودة، فقد اعتمدت تايوان كمحرض على الهجرة إليها، فمع إنشاء الحديقة العلمية الصناعية في "هيسنشو" في ثمانينات القرن العشرين، بدأت الصين في جني الأرباح المعرفية والاقتصادية من خلال تشغيل مئات من المهندسين والعلماء المولودين في تايوان من الولايات المتحدة الأمريكية والذين يتمتعون بقدر عال من المهارات والخبرات والعلاقات. وبسبب قربها من أرقى الجامعات والمراكز البحثية الحكومية. ومع توفير أراضي منخفضة الثمن ومسطحات خضراء. وأقل قدر ممكن من البيروقراطية. ساعدت الحديقة التي قامت على غرار وادي السليكون على إثارة ما يشبه سباق الذهب التقني وبناء كتلة حرجة من القوي العائدة للوطن. حيث قام العلماء والمهندسون العائدون من أمريكا بتأسيس حوالي ثلث شركات هذه الحديقة. ويعتبر "مين وو" أحد أوائل العاملين هناك ، فقد تخرج من جامعة ستانفورد ، و حث بدوره مجموعة من ٢٨ شاب تايواني علي إطلاق شركة "ماكرونيكس" الدولية للصناعات المحدودة في "هسنشو". ويقول "وو": "عندما كنت أعمل في شركة "إنتل" حلمت بأن أنشئ شركتي الخاصة. إننا نمزج هنا الأساس التكنولوجي الأمريكي مع تكنولوجيا التصنيع التايوانية". و يصل اليوم رأس مال هذه الشركة المنتجة لرقائق الكمبيوتر عالية القدرة إلى حوالي ٢ مليار دولار.

ويضيف "هينان". قائلاً: " تقوم سنغافورة بمد بساط الترحاب تحت أقدام العلماء ورجال الأعمال الأجانب على خطى تايوان. ويعتبر "إديسون ليو" الرحالة الدولي المولود في هونج كونج أحد أهم تلك الرموز المتميزة حيث أنه شغل وظيفة المدير السابق للعلوم الإكلينيكية في المركز القومي الأمريكي لأبحاث السرطان كما تم تعيينه رئيساً

لمعهد أبحاث الجينوم بسنغافورة. ويقول "ليو": "إن الأمر أشبه بركوب الأمواج فإنك عندما ترى موجة كبيرة تقوم بالتبديل كالمجنون للحاق بها. فإن ما فعلوه في التنسيق بين الاستثمار والهجرة والتعليم والبنية التحتية والنظم الطبية يعتبر أمراً مذهلاً حقاً. إنه أرقى مستوى مذهل من الهندسة الاجتماعية رأيته في حياتي".

كما حاولت "فيتنام" استنساخ مواهبها المستزرعة في الخارج. فقد تم تقدير عدد المهاجرين فيما وراء البحار لسنوات عدة بما يقرب من ٢,٧ مليون مهاجر –وهو تعداد يقارب نصف عدد سكان مدينة "هوشي"- كما تم إطلاق لقب "الفيتكيو" أو "الفيتناميين" عليهم. وعاش أكثر من نصفهم -١,٥ مليون- في الولايات المتحدة. إلا أنهم بدئوا في التقاطر عائدين لتفقد فيتنام الجديدة الأكثر تحرراً في بداية التسعينات. وأصبحت تلك القطرات طوفاناً في الوقت الحالي حيث يصل عدد العائدين إلى أكثر من ٣٠٠ ألف شخص سنوياً يقرر معظمهم العودة نهائياً لبلادهم.

ومن بين العائدين "ديفيد ثاي"، ٢٩ عاماً من كاليفورنيا، الذي غادر وطنه عام ١٩٧٢. وبعد تخرجه من جامعة واشنطون عاد لزيارة "فيتنام" ومعه ٧٠٠ دولار بحثاً عن فرصة عمل. فهو يدير حالياً سلسلة من المقاهي الناجحة في "هانوي" إلى جانب استثماراته في زراعة البن وتصديره. وتسعى الحكومة التي يسيطر عليها الشيوعيون. تاركة وراءها أيامها السوداء. إلى إزالة كافة العقبات أمام "الفيتكيو" ليشعروا بالترحاب في وطنهم بما في ذلك الإعلان عن وظائف في موقعين موجهين للفيتناميين في الخارج هما "فيتنام إكسبريس" و"فيتنام وركس". كما أن "فيتنام" تبذل حالياً مجهوداً هائلاً لتحويل نفسها إلى دولة متعددة الموارد الخارجية. وقد نتساءل الآن: لو أن "هوشي منه" كان حياً فماذا سيكون اعتقاده حيال ذلك الأمر؟

ويرجع سبب عودة معظم هؤلاء الهاربين من ذوي التدريب العالي إلي القيم الأمريكية، أكثر من السياسيات الأمريكية المضيقة على الهجرة حيث يواجهون كثيراً من المشاكل القيمية والأخلاقية مثل الطلاق والعري والمخدرات والسوقية. كما أن مدارس الدرجة الثانية تصب اهتمامها علي دراسة وسائل كشف المعادن أكثر من دراسة الرياضيات. فيما ينظر الآخرون إلي هذه البلاد نظرة سوداء ويشتكون من الهوس القومي بالسلطة والمال. حيث قد وصفها أحد العلماء المتحررين من سحر

أمريكا. قائلاً: "إنها ثقافة اللاثقافة". وقد عاد "كومي م. بوتسو"، نائب رئيس شركة "رايزينج داتا سوليوشنز Rising Data Solutions" التي تأسست في "جايثرسبيرج". إلى غانا منذ ثلاثة سنوات لتأسيس شركة قوامها ١٠٠ موظف. حيث قام هذا الرجل الذي عمل في شركة "آى بي إم IBM" لمدة عشرين عاماً بمقايضة قميصه الأبيض في مقابل الداشاكي –وهو القميص الملون الإفريقي الخاص ببلده- وذلك ليعيد اتصاله بقيمه الأصلية.

وتوفر الكثير من الدول العديد من الإغراءات للمهاجرين في أمريكا من خلال استشعار هذا التحول في الاتجاهات. فيعتبر "نورمان بروتي" أحد الأمريكيين الذين يتمتعون بحب التجوال. فقد قام هذا المدير التنفيذي المهاجر منذ الستينات بالعودة إلي "بنجالور" في الهند عام ١٩٩٢ ليجازف باستثمار رأس ماله في "سليكمون بلاتو". حيث شغل "بروتي"، خريج جامعة "ييل"، مناصب مالية عالية في "سيتي بانك" و"لازار فريري" لمدة ٣٥ عاماً. وبدلاً من التقاعد عاد إلى هذه الدولة المتلهفة لرؤوس الأموال ومعه حصاد عمر كامل من العلاقات القوية والخبرة في مجال الأعمال. ولكن لماذا الهند؟ -إنها موطن أكبر عدد من السكان المتحدثين بالإنجليزية خارج الولايات المتحدة. وحيث أن معظم أعمال هندسة البرمجيات تتم باللغة الإنجليزية فإن ذلك يشكل ميزة أساسية. وعلاوة على ذلك، فإنها تعتبر ثاني أكبر دولة في العالم من حيث عدد السكان لديها أكثر من ٤ مليون عالماً وفنياً محترفاً بما في ذلك آلاف من حملة درجات الدكتوراه الأمريكية.

وقد قامت شركة "آى سى إف فينتشيرز ICF Ventures" التابعة "لبروتي" بعقد صفقات عديدة لتمويل تلك الانطلاقة الهندية. ويقول "بروتي": "إن معظم تمويلنا يأتي من بعض أنجح الاستثمارات البنكية في الولايات المتحدة والرأسماليين المغامرين والمؤسسات التمويلية. فقد حقق هؤلاء الأشخاص أرباحاً طائلة في الولايات المتحدة وهم يرون إمكانية تحقيق أرباح أكبر في الهند".

وقد استفادت الولايات المتحدة من التنافس شبه المنعدم في مجال سوق المواهب لسنوات عديدة. ولكن مع مد العولمة وجذرها توفرت بعض البدائل المغرية في أمكان أخرى. حيث يحذر "أندرو جروف" المهاجر المجري الذي شارك في تأسيس شركة "إنتل"

وجعل من "وادي السليكون" مرادفاً لروح العمل الدافعة للاقتصاد الإبتكاري، قائلاً: "إننا نفقد أدمغة علماءنا كل يوم ،وإن المسافة بين الولايات المتحدة وباقي دول العالم تتناقص يوماً بعد يوم لأن المعرفة لا تظل مقيدة والناس لا يظلون مقيدين".

ألمع العقول تُغادر أمريكا:

نعم فقد بدأت أفضل العقول الأمريكية وألمعها في العودة إلي مواطنهم الأصلية بأعداد كبيرة، ومعهم يذهب التفوق التكنولوجي والاقتصادي للولايات المتحدة الأمريكية. ويسرع الخبراء الأمريكيون ممن كانت مساقط رؤوسهم خارج الولايات المتحدة الأمريكية حالياً في العودة إلي أوطانهم وبأعداد كبيرة منذرة بالخطر حيث تصل أعدادهم إلي ألف أمريكي كل يوم.

الهجرة الجماعية من أمريكا:

ويستعرض "هينان" في كتابه هروب رأس المال، أبعاد هذه الهجرة الجماعية من خلال قصص شخصية لعشرات الخبراء الأمريكيين الناجحين الذين هاجروا إلي الولايات المتحدة الأمريكية في فترات مختلفة من حياتهم وحصلوا علي الجنسية الأمريكية، ثم بدؤوا الآن يتركون الولايات المتحدة بحثاً عن فرص جديدة في مواطنهم الأصلية.

كما يتناول أيضا في الكتاب ذاته مجموعة من العوامل المختلفة التي تؤدي إلي هذه الهجرة الجماعية، والتي منها الفرص الاقتصادية والعولمة التكنولوجية وتوابع أحداث ١١ سبتمبر.

وبناء علي الخبرات التي مر بها هؤلاء يحلل الكاتب العوامل الاقتصادية والثقافية والسياسية التي تسببت في هذه الهجرة الجماعية، وكذلك المبادرات التي تستخدمها الدول الأخرى لجذب الخبراء الأمريكيين إليها.

فهو يدق ناقوس الخطر والتحذير، فمن يهاجرون الآن إلي الخارج هم صفوة العقول في المجالات العلمية والتكنولوجية، مثل الذين قاموا بإنشاء وتطوير مجموعة من أفضل المواقع علي شبكة الانترنت والذين يقودون مسيرة التقدم التكنولوجي اليوم في الولايات المتحدة.

وقد قضي مؤلف هذا الكتاب –"ديفيد هينان" الذي يعتبر أحد كبار الخبراء في مجال العولمة- خمس سنوات في رحلات حول العالم سافر فيها إلي ثماني دول في ثلاث قارات ليبحث عن أسباب الهجرة العكسية واجري العيد من المقابلات الشخصية معهم للوقوف علي هذه الأسباب.

مقابلات شخصية:

هذا وقد اجري "هينان" العديد من المقابلات الشخصية مع العلماء ... من أيسلندا شمالاً إلي الهند شرقاً، وعقد مقابلات شخصية مع أكثر من مائة من الخبراء الذين عادوا من الولايات المتحدة إلي بلادهم, وكذلك مع مسئولين حكوميين وقادة شركات قاموا بأخذ مبادرات جريئة لاجتذاب الخبراء والموهوبين من الولايات المتحدة.

ولكل من هؤلاء الخبراء قصة مختلفة إلا أنهم يتشاركون جميعاً في رغبتهم في الاستفادة من الخبرات التي اكتسبوها في الولايات المتحدة واستغلالها لصالح بلادهم الأصلية.

وبهذه الهجرة الجماعية تكون المحصلة النهائية هي فجوة في الموارد البشرية الخبيرة في الولايات المتحدة لتتحول أمريكا إلي مركز تصدير رؤوس المال البشرية بعد أن كانت من أكثر الدول جذباً للخبراء والمبتكرين من كافة أنحاء العالم.

نزيف الأدمغة الأمريكية لا يزال مستمراً:

وفي ٢٠١٠/٣/١٥ كتب "إديسون ويجن Addison Wiggin" أن أمريكا تفقد حالياً معظم الشباب الموهوبين الواعدين, الذين يسافرون للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية, للعمل في مقاولاتها الصناعية.

وفي السنوات الأخيرة, مثل الطلاب الأجانب ٦٠٪ من الحاصلين علي الدكتوراه في الهندسة في الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا ما وسعنا النطاق أكثر ليشمل طلاب الدكتوراه في الهندسة, والرياضيات, وعلوم الحاسب الآلي, والفيزياء نجد أن نسبة ٥٠٪ من طلاب الدكتوراه في هذه المجالات من الأجانب. كما أن ٥٠٪ ممن يقودوا التكنولوجيا ويديرونها في وادي السليكون Silicon Valley من الأجانب قد برزوا

بشكل جلي في العقد الأخير, خاصة في شركات مثل: "جوجل, وإي باي, وإنتل, وياهو...".

وفي الوقت الذي غادر فيه هؤلاء العلماء بلادهم –كطلاب- للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية واستقروا بها, وجدنا أن نسبة ٩٢٪ من بين طلاب الدكتوراه الصينيين الحاصلين علي درجة الدكتوراه في العلوم والهندسة قد بقوا في الولايات المتحدة بعد حصولهم علي درجة الدكتوراه لمدة خمسة سنوات علي الأقل, وكذلك الأمر بالنسبة لـ ٨٥٪ من الهنود الحاصلين علي درجة الدكتوراه في العلوم والهندسة.

ويؤكد "فيفيك وادهوا Vivek Wadhwa" أن "الأمر لم يعد كذلك في الوقت الحالي", وأن "الولايات المتحدة الأمريكية تعيش تجربة نزيف الأدمغة لأول مرة في تاريخها".

وفي عام ٢٠٠٩ كان "وادهوا Wadhwa" من بين أربعة باحثين من جامعات ديوك Duke, وهارفارد Harvard, وبركيلي Berkely الذين أجروا دراسة مسحية لأكثر من ١٢٠٠ طالب أجنبي ولدوا خارج أمريكا لصالح "مؤسسة كوفمان Kauffman Foundation". كما أشار "وادهوا Wadhwa" إلي أن عدد الصينيين الذين يخططون للبقاء في الولايات المتحدة الأمريكية يمثلون نسبة ٥٤٪ من إجمالي عددهم, فيما تبلغ نسبة الهنود ٥٨٪. ويضيف "وادهوا Wadhwa" أن ١٠٪ من العائدين إلي الهند كانوا يشغلون نسبة ١٠٪ من وظائف الإدارة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية, أما في بلدهم الأصلية –الهند- فقد شغلت نسبة ٤٤٪ من هؤلاء العائدين مثل هذه الوظائف. أما في الصين فكانت نسبة الصينيون الذين يشغلون وظائف إدارية عليا في الولايات المتحدة تمثل ٩٪ قبل عودتهم إلي بلادهم, بينما وصلت نسبة شغلهم لهذه الوظائف إلي ٣٦٪. كما أوضح أن فرص التقدم والترقية المهنية أفضل في بلادهم الأم فقد وصلت في الهند إلي نسبة ٦١٪, وفي الصين إلي نسبة ٧٠٪.

الهجرة العكسية للأدمغة تهدد الاقتصاد الأمريكي:

وتشير " آلان إم ويبر" إلي أن الهجرة العكسية للأدمغة تهدد الاقتصاد الأمريكي. فلم يزل الأمريكيون حتى وقت قريب يدركون أن مصطلح "هجرة الأدمغة"

يعنى: هجرة العلماء والمهندسين وغيرهم من التقنيين البارعين والموهوبين من جميع أنحاء العالم إلى الولايات المتحدة. حيث كانت عوامل جذبهم تتمثل في أفضل الجامعات وأكثر الشركات نشاطاً وأضخم بيئة اقتصادية واجتماعية حرة وأكثر المستويات المعيشية ارتفاعاً.

وفي الوقت الحالي وبينما مازال الكثير من تلك العوامل متوفراً. إلا أنه طرأ أحد المصطلحات الجديدة على مسامع الأمريكيين: "الهجرة العكسية للأدمغة". حيث يشير ذلك المصطلح إلى إتباع سياسات الحكومة والقطاع الخاص التي يمكن على المدى البعيد أن تؤدى إلى تحول هائل في موازين القدرة العقلية العالمية.

وقد وصف "جريجورى مانكيو". رئيس المستشارين الاقتصاديين للرئيس السابق بوش. تلك المميزات لشركات الولايات المتحدة لتوفير الوظائف الخارجية. إلا أن ذلك الأمر. إذا ما لم يتم تسويته. قد يؤدي إلى نتائج خطيرة على قدرة الاقتصاد الأمريكي على المنافسة.

فيما تخطط الحكومة الفيدرالية من جانبها إلى ترك العلماء "المثيرين للجدل" –مثل: أولئك القائمين على أبحاث تتعلق بقضية الإجهاض- يذهبون إلى الدول الأخرى وعدم استقبال الخبرات الأجنبية. كما تسعد الشركات الأمريكية بتوريد أعمالها العلمية للخارج بينما وفي نفس الوقت تشترى عقود موظفيها الأكثر خبرة –تحت بند تقليل النفقات. فيما فشلت الطريقة المؤكدة الوحيدة لاكتساب أدمغة جديدة – الأنظمة التعليمية العالية الجودة- في توفير مواهب محلية كافية.

وفي حين ما يتسع الاقتصاد عالمياً وتهاجر الأدمغة المبدعة الممتازة. سواء ما إذا بقيت في الخارج أو تمت تنميتها في الخارج. فقد تتصدى الدول الأخرى لدور الولايات المتحدة كرائدة الابتكار والإبداع. وتتمثل آفاق هذا التحدي القادم –أكثر من فقدان الوظائف الحالي- في ما يجب أن تكون عليه المداولات حول المستقبل الاقتصادي لأمريكا فيما يلي:

أولاً: تقوم السياسات الحكومية الحديثة على إرسال الباحثين الأمريكيين الموهوبين إلى الخارج والاعتماد على قدوم باحثين جدد إلى أمريكا. كما أوضحت إحدى مقالات "ريتشارد فلوريدا" أحد أعضاء هيئة التدريس بجامعة "كارنيجى ميلون "

المنشورة حديثاً في مجلة واشنطن الشهرية أن سياسات حكومة بوش تضرب الاقتصاد الأمريكي في مقتل. ويشير كتاب "ظهور الطبقة المبدعة The Rise of the Creative Class" لفلوريدا إلى أن معظم المجتمعات التنافسية تصب جلّ اهتمامها على أفرادها الموهوبين وتحوز على مستوى مرتفع من الابتكارات التقنية وعلى مستوى مرتفع من إمكانية التأقلم مع الأنماط المعيشية المختلفة.

إلا أن الولايات المتحدة تفقد قدراتها في تلك المجالات حالياً، وفقاً لما أشار إليه "فلوريدا".

كما أنه استشهد بحالة "روجر بيديرسون"، الذي يعتبر أحد رواد أبحاث الخلايا الجذعية الذين تركوا وظيفتهم في جامعة كاليفورنيا لمتابعة أبحاثهم في المملكة المتحدة. لماذا يفعلون ذلك؟ لقد استغلت الحكومة البريطانية خبراته في نفس الوقت الذي ضيقت فيه حكومة بوش الخناق على أبحاث الخلايا الجذعية. ولا يمكن تعويض مثل تلك النماذج المبدعة من خلال هجرة الأدمغة الحديثة. حيث أن الأشخاص الموهوبين التابعين للدول الأخرى لا يأتون إلى أمريكا ربما بسبب أننا لا نسمح لهم بذلك. وقد اكتشفت إحدى دراسات المجلس العلمي المحلى National Science Board أن نسبة عدد تأشيرات الهجرة للعمل في مجال العلوم والتكنولوجيا في الولايات المتحدة قد انخفضت بنسبة ٥٥٪ بين عامى ٢٠٠١ و ٢٠٠٢، ويرجع السبب الرئيس لذلك إلى الإجراءات التنظيمية التي تلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

ثانياً: تساهم الشركات الأمريكية بصورة كبيرة في الهجرة العكسية للأدمغة. فقد حولت تلك الشركات وظائف التصنيع إلى بعض الدول الأخرى بنفقات أقل ومواصفات جودة مناسبة منذ عشرات السنين. في حين أنها تحول في الوقت الحالي الوظائف العلمية –مثل: الهندسة والبرمجة وتصميم المنتجات وتطويرها- إلى بعض الدول الأخرى مثل: الصين والهند وروسيا. وقد حذر "كرايج باريت"، المدير التنفيذي لشركة إنتل، بأن روسيا والصين والهند يمتلكون بالفعل ما يقدر ب٢٥٠ مليون إلى ٥٠٠ مليون موظفاً يشغلون الوظائف العلمية –من ذوى التعليم العالي والمهارات التقنية الهائلة والذين بإمكانهم وضع شفرات الحواسب وتصميم المنتجات الدقيقة والقيام بالعمليات المعقدة.

لذلك تقوم تلك الشركات في الحقيقة بتهجير أدمغتها عندما تتعاقد مع هؤلاء الموظفين الأجانب. حيث أنهم بذلك قد يوفرون النفقات ويزيدون من الأرباح على المدى القريب. في حين أنهم يقومون بتهجير قدراتهم الإبداعية ويستنفذون قدرتهم على إنتاج منتجات وخدمات جديدة تدريجياً على المدى البعيد.

وفي نفس الوقت تتيح الشركات الأمريكية إمكانية الحصول على معاش مبكر وفرص شراء مغرية لموظفيها الأكثر خبرة والأكثر ذكاء والأعلى أجراً، تحت بند التوفير المادي. كما تشير إدارة إحصائيات العمال إلى أن نسبة الأمريكيين من ذوى عمر ٥٥-٦٤ الذين تم توظيفهم في وظائف مربحة تستمر في الهبوط منذ منتصف الستينات. وتتشابه الفكرة وراء هذه الإستراتيجية مع فكرة تحويل الوظائف العلمية إلى الخارج، حيث تتلخص تلك الفكرة في: إيجاد موظفين بديلين جدد وأصغر عمراً وذوى مرتبات أقل.

إنها تعتبر صفقة ساذجة. حيث أنه لا يمكن للموظفين الأجانب أو الأصغر عمراً أن يحلوا محل الموظفين القدامى من ناحية ذاكرتهم المؤسسية وعلاقاتهم الطويلة الأمد وإبداعاتهم التطبيقية. لذلك تخسر تلك الشركات كلاً من رأس مالها العلمي ورأس مالها الاجتماعي اللذين تم اكتسابهما من خلال موظفيها القدامى والأذكياء والموهوبين.

وأخيراً: تتفاقم مشكلة الهجرة العكسية للأدمغة بسبب الأزمة المستمرة في التعليم الأمريكي. وقد أشار "نيكولاس كريستوف" في إحدى مقالاته الأخيرة في صحيفة نيويورك تيمز إلى أن سبب ذلك يرجع إلى أن مستوى التعليم الأمريكي ينحدر في مجالي الرياضيات والعلوم. حيث تم تصنيف الولايات المتحدة في المرتبة التاسعة عشرة، بعد جمهورية لاتفيا، خلال أحدث التصنيفات العالمية للعلوم والرياضيات. فيما لم يتضمن ذلك التصنيف على الهند والصين –إلا أن عدم تضمينهما قد وضع أمريكا في الجانب الآمن حيث أنه لو تم تضمينهما في التصنيف لانحدرت الولايات المتحدة إلى المرتبة الحادية عشرة.

لماذا يحدث ذلك الأمر؟ يمكننا الاستشهاد بالتصريح الذي أدلى به "آلان جرينسبان" رئيس مجلس إدارة البنك المركزي الفيدرالي خلال الشهر الحالي قبل

انعقاد لجنة الأعمال المصرفية لمجلس الشيوخ عندما تم سؤاله عن تهجير الأدمغة وارتفاع العجز التجاري للولايات المتحدة. حيث أشار بحكمة إلى أن التعليم وليس التجارة أو تهجير الأدمغة سوف يحدد مصير موظفي الولايات المتحدة.

ولا يمكن لأحد إنكار حقيقة أنه عندما يتعلق الأمر بالديناميكية الاقتصادية فإن الولايات المتحدة مازالت تتربع على القمة. إلا أن إتحاد سياسات "الهجرة العكسية للأدمغة" تمثل خطراً محققاً على القدرة المستقبلية للأمم المتحدة على التنافس.

وتتضح التيارات البعيدة المدى للاقتصاد العالمي في أننا: ننجرف بشدة تجاه الاقتصاد العلمي. بينما ترتكز الأعمال الإنتاجية والمدرة للربح على الأفكار والمعلومات والتفكير الواسع الأفق. كما يتطلب العمل عوامل مادية أكثر (الأدمغة) وعوامل حسية أقل (القوة). لذلك تحتل الدول والشركات التي تحوز على أفضل الأدمغة المركز الأول.

وتعتبر الطريقة الوحيدة المتاحة للولايات المتحدة لتفوق الآخرين في التفكير وفي الذكاء وفي الإبداع هي إعادة النظر في السياسات الحكومية التي تقوم بتهجير أفضل الأدمغة الأمريكية إلى الخارج أو التي تعوق عملية استقدام الأدمغة الأخرى إلى الولايات المتحدة. والبحث في الممارسات التجارية التي تزيد من حدة الاعتماد على الأدمغة الأجنبية بينما "ترسل" أدمغتنا المحلية إلى الخارج. وزيادة الاستفادة من أنظمة الولايات المتحدة التعليمية. فإنه مازال بإمكاننا إيقاف الهجرة العكسية للأدمغة. إلا أنه ينبغي علينا أولاً توظيف أدمغتنا للعمل على حل تلك المشكلة.

أمريكا دولة من العالم الثالث:

وفي مقالة في جريدة "نيويورك بوليتيكس New York Politics" الأمريكية تحت عنوان (نزيف الأدمغة الأمريكية) يؤكد "مايكل بوياجيان Michael Boyajian" ما سبق أن أكده الصحفي الأمريكي "بوب هربرت Bob Herbert" في جريدة نيويورك تيمز الأمريكية أن: أمريكا تعاني من تراجع في الامتياز الأكاديمي –من بين تراجعها في مجالات أخري- لتهبط إلي المركز رقم (١٢)

من بين (٣٦) دولة تمنح درجات أكاديمية. ويذهب "مايكل بوياجيان Michael Boyajian" إلي أن الأمريكيين قد جنحوا إلي الاسترخاء أمام التلفاز لمشاهدة ما يسمي بدراما الواقع والاستماع إلي الأغاني والموسيقي الريفية والرعوية وهم يلتهمون عبوات الشيبسي دون حيازة كتاب واحد في منازلهم. لذلك تتمثل المشكلة الأساسية في الهجرة العكسية أو نزيف الأدمغة العكسي الذي سيهبط بأمريكا إلي مرتبة دول العالم الثالث.

ويستطرد "مايكل بوياجيان Michael Boyajian" في وصفه لمأساة أمريكا بسبب هجرة العقول منها, قائلاً: "في الوقت الذي يضرب فيه الأمريكيون صدورهم من جراء الحروب القائمة و"تهديدات المهاجرين", نجد أن المتعلمين الأمريكيين يتسربون عبر البحار إلي دول أخري تدفع لهم أقل, إلا أن تكلفة المعيشة فيها أقل إذا ما قورنت بمثيلتها في أمريكا: فإنهم يعيشون مثل الملوك خارج البلاد, الأمر الذي يجعل من عودتهم للوطن أمراً صعباً".

ويضيف "مايكل بوياجيان Michael Boyajian" أن ذلك الأمر مثله مثل معالجة مشكلة الاحتباس الحراري حيث أننا لا نلاحظ فيها أي تغيير ملموس, وكذا الأمر المتعلق بتدني نسبة الحصول علي الدرجات العلمية والمهاجرين من البلاد إلي الخارج, الأمر الذي يؤدي بأمريكا إلي الهبوط إلي مرتبة متدنية وإلي تقلص الفرص الأمريكية علي المستوي العالمي, بغض النظر عما يزعمه الساسة الأمريكيون في هذا الشأن عن أن أمريكا لا تزال أعظم قوة علي وجه الأرض وأنها قادرة علي تغيير الأشياء.

كما يؤكد "مايكل بوياجيان Michael Boyajian" أيضاً أن أمريكا لن تعيش علي كسبها أو دخلها وأنها ستصبح "عبدة" للأرصدة الأجنبية حتى يجد الشعب الأمريكي نفسه سجيناً لنظام القروض والتسليف الذي كان يتقنه يوماً ما, وأن الشعب الأمريكي لن تتوفر لديه القوة العقلية القادرة علي جذب الشعب من الحفرة التي سقط فيها, وخاصة الطبقة المتعلمة التي تعيش الآن بالخارج, هذا بالإضافة إلي باقي الشعب المنوّم مغناطيسياً في آخر فضيحة مشهورة.

ويتشابه هذا السياق مع ما ورد في كتاب النبوءات لـ "إتش جي ويل H.G.Well" بعنوان "آلة الزمن The Time Machine" حيث يرى أن "الناس سجناء لسباق صعب لسكان تحت الأرض".

هذا هو مستقبل الولايات المتحدة الأمريكية الذي يختلف كثيراً عن المستقبل الذي عرفته في نهاية الستينات من القرن العشرين في عصر امتياز التعليم عندما كانت أمريكا مقراً للذكاء والأذكياء يحكمه العلم, عندما استنزفنا أدمغة الدول الأخري وجففنا منابع الطاقة العقلية فيها, وحلمنا الحلم الأكبر.

رؤساء أمريكا وهجرة الأدمغة:

ولم يكن الرئيس الأمريكي الأسبق "بيل كلينتون" مخطئاً حين أشار إلي أن أمريكا تقود العالم وتسوده ليس بالاعتماد علي عقول أبنائها فحسب, ولكن من خلال عقول العالم التي عملت علي جذبها, وتمني أن تظل أمريكا معملاً كبيراً لعقول العالم أجمع, وأعرب عن أنه سيعمل علي تحقيق ذلك حتى بعد تركه لمقعد الرئاسة الأمريكية.

أما "جورج دابليو بوش الابن"، ذلك الشيطان الأرعن, فرأي أن يستغل القدرات والطاقات الهائلة والإنجازات غير المسبوقة في تكنولوجيا الحرب المتقدمة وراح يسخرها في إبادة البشرية بشتى الطرق فتن هنا, وحروب هناك, وكأنه قد أقسم برأس شيطانه الألعن أن يهلك الحرث والنسل, وأن لا يبقى ولا يزر, فهدد الحريات في بلاده وخارجها, وقاد بلاده والعالم أجمع إلي حروب وخطايا لا تغتفر أدت إلي أزمة مالية طاحنة, لا يعلم إلا الله مداها وتأثيرها ليس علي شعبه فحسب, بل امتدت إلي اقتصاديات العالم كافة في ظل قوى العولمة الاقتصادية, فعاني الجميع من ويلات تلك الأزمة وراحوا يلعنونه...فاستحق اللعنة وفاز بها...فإلي جهنم وبئس المصير مذموماً مدحوراً غير مأسوف عليه مع شياطين انسه وجنه وساء أولئك رفيقا... فمثلهم يتوعدهم الله تعالي في قرآنه الكريم بصَقَر, "وما أدراك ما صَقَر, لا تبقي ولا تذر". فإنه لم يُهدر الدماء ويستنزفها بحروبه وسياساته الرعناء فحسب, بل قام من خلال التضييق علي الحريات وأمن الأفراد باستنزاف العقول الأمريكية, وشهدت أمريكا, ولعلها تكون المرة الأولي في التاريخ,

حالة من نزيف الأدمغة التي كان من بين أسبابها تهديد أمن تلك الأدمغة داخل أمريكا وخارجها. فكانت التصفية الجسدية والنزيف الدموي الحقيقي للكثير من علماء الدول التي قامت أمريكا وأعوانها بالحرب عليها مثل: العراق وأفغانستان، بصرف النظر عن أسباب تلك الحروب ومبرراتها غير المقبولة في أي حال من الأحوال. ولم يتوقف الأمر فقط علي النزيف الدموي للعلماء، بل أدت مثل تلك السياسات الرعناء إلي نزيف بعض العقول الأمريكية ذاتها وهجرتها –هذا بخلاف عودة الكثير من العلماء إلي بلدانهم الأصلية- إلي حيث الأمان والاستقرار إلى مقار دول واقتصاديات وحريات واعدة إلي حد كبير..مثل: الصين، والهند، وتايوان، وماليزيا، وغيرها من الدول الناهضة. هذا ما فعله الشيطان الألعن فكانت هديته أمام شاشات التلفاز وكاميرات العالم أجمع قبل رحيله وأثناء وداعه في العراق حذاء "منتصر الزيدي" المقدام مقذوفاً في وجهه كنوع من المداعبة لخلقته وأخلاقه. كما كانت قصيدة الشاعر الوطني الجميل "فاروق جويدة" من أجمل ما كتب في وداع ذاك الشيطان الأرعن:

"ارحـــل وعـــــارك في يديـــــك فالأرض كل الأرض ساخطة عليك"

أما هذا الشاب الأفريقي الأمريكي الذكي الوسيم "باراك حسين أوباما"، الذي أغبطه علي ذكائه وأحلامه القومية لبلاده وجرأة أمله وعمله لها –وإن كنت لا أتفق معه في كثير من الأمور، خاصة تلك الوعود المعسولة للعرب وللمسلمين في خطابه السياسي دونما تنفيذ فعلي أو حقيقي علي أرض الواقع- فهو يحلم لشعبه ويطمح ويأمل ويحاول أن يوفر –قدر الإمكان- مناخاً سلمياً آمناً داخل بلاده وخارجها، وإن لم نلمس في الوطن العربي آثار توجهاته المعلنة حتى الآن. إلا أنه يوفر بيئة جاذبة، ولديه ذكاء وجداني رائع ومنقطع النظير، ولا أستطيع إخفاء إعجابي به في هذا الشأن –رغم تحفظاتي الكثيرة عليه في أمور أخري- فنراه علي سبيل المثال، ومثلما ورد في كتابه "جرأة الأمل"، عند لقائه مع الأقليات المهاجرة في أمريكا يلتزم بقول عبارات ثلاثة معهم مثل: "أنا صديقكم"، والبلد المعني "كان مهداً للحضارات"،و"أنتم تجسدون الحلم الأمريكي"، وهو يمثل بذلك توجه جاذب للأدمغة المهاجرة إلي بلاده.

وفي كتابه "جرأة الأمل" وإشارته إلى استيعاب أمريكا للمهاجرين من شتى أصقاع المعمورة يقول **"باراك أوباما"**: "إن تحديات الهجرة تُشعل شرارة الخوف من مستقبل غامض يلفه عدم اليقين. ديمجرافية أمريكا تتغير بطريقة لا يمكن وقفها وبسرعة الضوء، ودعاوي ومطالب المهاجرين لا تتناسب مع نموذج الأسود والأبيض القائم على التمييز والمعارضة والذنب والرد الغاضب والاتهام المضاد. وفي الحقيقة حتى القادمين الجدد من السود والبيض-من غانا وأوكرانيا والصومال ورومانيا- يصلون إلى هذه الشواطئ متحررين من عبء الديناميات العرقية والعنصرية لأي حقبة سالفة".

ويضيف أوباما: "خلال الحملة الانتخابية، شاهدت على أرض الواقع وبطريقة مباشرة وجوه أمريكا الجديدة هذه في الأسواق الهندية على طول جادة ديفون، في المسجد الجديد الذي يُشيد في الضواحي الجنوبية الغربية، في حفلات زواج الأرمن وحفلات رقص الفلبينيين، في اجتماعات مجلس قيادة الأمريكيين الكوريين، وفي جمعية المهندسين النيجريين، في كل مكان زرته وجدت مهاجرين يستقرون في أي منازل أو وظائف يعثرون عليها، يغسلون الأطباق أو يقودون سيارات الأجرة أو يكدحون في مصابغ أقربائهم، يدخرون المال ويؤسسون أعمالهم التجارية ويبعثون النشاط والحياة في الأحياء الميتة، إلى أن ينتقلون إلى الضواحي ليربوا أطفالهم ويعلموهم التحدث بلهجة لا تختلف عن لغة أرض الآباء والأجداد فقط، بل تناقض شهادات ميلادهم في شيكاغو أيضاً. رأيت مراهقين يستمعون إلى موسيقى الراب ويتسوقون من مراكز التسوق ويخططون ليصبحوا في المستقبل أطباء ومحامين ومهندسين وحتى سياسيين".

ويستطرد أوباما قائلاً: "قصة المهاجرين التقليدية هذه تحدث في شتى أنحاء البلاد، قصة الطموح والتكيف، والعمل الدءوب والتعليم والاندماج والحراك الارتقائي. لكن المهاجرين اليوم يعيشون هذه القصة وكأنها من قصص الخيال العلمي. وبوصفهم مستفيدين من أمة أكثر تسامحاً ودنيوية من تلك التي واجهها المهاجرون قبل أجيال، أمة أصبحت تحترم أساطير مهاجريها، غدوا أكثر ثقة بمكانهم هنا وأشد تشبثاً بحقوقهم. وبصفتي عضواً في مجلس الشيوخ – الكتاب صدر قبل أن يصبح أوباما رئيسا لأمريكا -، أتلقى دعوات لا حصر لها لإلقاء خطب أمام هؤلاء المواطنين الأمريكيين الجدد، حيث كثيراً ما تستطلع آرائي فيما يتعلق بالسياسة الخارجية –ما

موقفي من ....؟؟ أو مستقبل تايوان؟ فلديهم اهتماماتهم ومشاغلهم السياسية المحددة في المجالات التي تهيمن فيها جماعاتهم الأثينية.

لكن في أغلب الأحوال يريدون توكيداً على أنهم أمريكيون أيضاً – كلما ظهرت أمام جمهور من المهاجرين، أسمع بعض المعاتبات البريئة من جانب المساعدين العاملين معي بعد إلقاء الخطبة، فبرأيهم، تتبع ملاحظاتي تركيبة ثلاثية الأجزاء: *"أنا صديقكم"*، و*"البلد المعني كان مهداً للحضارات"*، *"وأنتم تجسدون الحلم الأمريكي"*. وهم على صواب، فرسالتي بسيطة. وكما أصبحت أعرف، كان مجرد حضوري أمام هؤلاء الأمريكيين الجدد يخدم ملاحظة أنهم قوم مهمون، ناخبون يتمتعون بأهمية حاسمة لنجاحي، ولهم حقوق المواطنة الكاملة ويستحقون الاحترام والتقدير".

"وبالطبع، لا تتبع جميع الحوارات التي أجريها مع جاليات ومجتمعات المهاجرين المحلية هذا النمط السهل. ففي أعقاب الحادي عشر من سبتمبر، اتسمت لقاءاتي مع الأمريكيين العرب والباكستانيين، مثلاً بطبيعة ملحة وعاجلة، لأن قصص الاعتقالات واستجوابات مكتب التحقيقات الفيدرالية والنظرات العدائية من الجيران، زعزعت إحساسهم بالأمان والانتماء، فقد ركزوا علي أن لتاريخ الهجرة إلى هذا البلد جانباً مظلماً وحساساً ونقطة ضعف؛ وهم بحاجة إلى تطمينات محددة تؤكد لهم أن مواطنتهم تعني شيئاً بالفعل، وأن أمريكا تعلمت العبر والدروس الصحيحة من احتجاز الأمريكيين من الأصول اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية، وأنني سأقف معهم إذا تحولت الرياح السياسية إلى وجهة غير مرغوبة.

أينما تذهب العقول يتبعها رأس المال:

لقد قضي الأمريكيون وقتاً صعباً في شغل عقولهم في تغطية قضية "نزيف الأدمغة" المحلية. فقد كانت الولايات المتحدة دائماً أرضاً للفرص..وقبلة ومنارة للأمل لباقي شعوب العالم. وكان نزيف الأدمغة يحدث في العادة لدول أخري –مثل دول حلف وارساو Warsaw Pact- وأفكارهم المتحجرة عن الحياة- تحت قبضة موسكو. أو الدول الاشتراكية الناعمة في أوروبا الغربية.

فإن كان هؤلاء الذين ساعدوا في إنشاء "جوجل Google، وإنتل Intel، وإي باي eBay" يريدون حالياً الرجوع إلي بلادهم وفعل نفس الشئ هناك فسوف يتبعهم رأس المال حيث يتبع دائماً العقول. بمعني أنك إن لم تكن عملت علي توسيع استثمارك بشكل أفقي لما وراء شركات الولايات المتحدة، فلا توجد فرصة أفضل من الآن للبدء في ذلك، لأن "جوجل الغد" سوف توجد هناك في الخارج فيما وراء الشواطئ الأمريكية.

وفي مقالها بعنوان " أزمة هجرة الأدمغة الأمريكية" في مجلة "ريديرز دايجست Reader's Digest" تساءلت "كاثرين والاس": " لماذا يختفي أفضل علماؤنا، وأين يكمن الخطر بالتحديد؟". وقد أرجعت أسباب ذلك إلي فقدان الدوافع العالمية.

فقدان الدوافع العالمية:

يعتبر" ويليام كانز" أحد خبراء الحاسوب، أو يعتبر بصورة أكثر دقة أحد عباقرة مجال الحاسوب. فعندما كان بعمر الحادية عشرة بدأ في صناعة البرامج الحاسوبية، وفي سن الرابعة عشرة أنشأ أول لعبة فيديو خاصة به. كما أنه عندما كان طالباً في السنة الثانية في إحدى المدارس الثانوية في هوستن بولاية تكساس ربح الجائزة الأولى في أحد المعارض المحلية للعلوم على أحد برامج تشفير البيانات التي قام بإنشائها. أما في عام التخرج فقد ربح الجائزة الأولى في أحد المعارض العالمية للعلوم والهندسة على تصميم أحد البرامج لتحليل عينات الأحماض النووية وتصنيفها.

وقد واصل" كانز" مسيرته ليلتحق بجامعة "كارنيجى ميلون" التي تعتبر إحدى الجامعات الرائدة في مجال علوم الكمبيوتر على المستوى المحلى. وبعد إنهاء دراسته الجامعية التحق بإحدى الوظائف في شركة أوراكل Oracle في وادي السيلكون Silicon Valley (إحدى المناطق التي تقع في جنوب سان فرانسيسكو وتضم العديد من شركات الكمبيوتر) كمصمم للبرامج التي تستخدمها الشركات حول العالم. فقد تطلع كانز إلى أن يتألق في مجاله، إلا أنه تخلى عن ذلك بالكامل.

وحالياً، وبعد مرور ثلاث سنوات، يدرس كانز في السنة الأولى في جامعة "هافارد "لإدارة الأعمال. فقد ترك مجال هندسة البرمجة جزئياً بسبب خجله أمام أصدقائه الذين التحقوا بمجال القانون أو إدارة الأعمال. كما أنه كان قلقاً أيضاً

بشأن استقراره الوظيفي، وخصوصاً بعد زيادة عدد الشركات التي تقوم بنقل برمجياتها إلى الخارج بتكلفة أقل. فقد أشار كانز قائلاً: "يُطلب منك في كل مرة أن تدرب أحد الأشخاص في الهند، هل أقوم بتدريب بديلاً لي؟"

كما ذكر "كينج شان جيا" أن الأمور تتغير بشكل مختلف وبصورة أكثر روعة في مجال الهندسة. ويتألق "جيا"، الذي يعتبر أحد الطلاب في جامعة "تسينغوا" في بكين، بين زملائه الموهوبين في أحد الجامعات التي يطلق عليها أحياناً "معهد ماساشوسيتس" للتكنولوجيا الصيني". كما أنه همّ بالتقدم للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة "هافارد"، إلا أنه قرر أنه ليس هناك فائدة من ذلك".

ويمثل كلٌ من هذين المثالين جزءاً من الواقع الأليم. وتتمثل النظم التي تدعم اقتصاد التكنولوجيا الحديثة في: الرياضيات والعلوم والهندسة. ولذلك تفقد أمريكا دوافعها العالمية تدريجياً. كما يتضح أن أبعاد المشكلة تتمثل في:

- أن العديد من وكالاتنا الرئيسية للبحث العلمي والتنمية سوف تواجه أحد أزمات التقاعد خلال العشرة سنوات القادمة.
- أن أقل من ٦٪ من طلاب المرحلة النهائية في المدارس الثانوية يخططون للالتحاق بالمجالات الهندسية، وهى النسبة التي تقل بنسبة ٣٦٪ عن مثيلتها منذ عشرة سنوات.
- أن ٥٦٪ من أبحاث الطلاب الجامعيين الصينيين تمحورت حول العلوم المتعلقة بالإثباتات عام ٢٠٠٠، فيما لم تتعدى نسبة تلك الأبحاث في أمريكا عن ١٧٪.
- أنه من المحتمل أن يتخرج عدد من المهندسين في الصين يساوى ستة أضعاف عدد المهندسين الذين سوف يتخرجون في أمريكا العام القادم، وفقاً لما ذكره "مايك جيبونز" أحد محرري جريدة American Society For Engineering Education. فيما قد تخرج في اليابان، التي تحوز على عدد سكان يصل إلى نصف عدد سكان أمريكا ، ضعفي هذا العدد في السنوات الأخيرة.

كما أن هناك الكثير من التطورات المثيرة التي يمكن إضافتها إلى أبعاد تلك المشكلة: فبينما تنشئ الدول الأخرى مراكز تعليمية وتوفر الوظائف للحفاظ على تفوقها وازدهارها، تفقد الولايات المتحدة نماذج جديرة بالثقة من المواهب. وعلاوة على

ذلك فإننا نبذل القليل جداً من الجهد لتعليم أجيال العلماء والمهندسين القادمين وتدريبهم.

وقد أشار" شيرلى آن جاكسون"، مدير معهد "رينسيلاير بوليتيكنيك Rensselaer Polytechnic Institute" ورئيس الاتحاد الأمريكي لتطوير العلوم "American Association For The Advancement Of Science"إلي ذلك قائلاً: "يغفل معظم الأمريكيون قدر الإسهامات التي تقدمها العلوم لأمريكا وعن مقدار الخسائر التي سوف نتكبدها إذا ما لم نحافظ على تلك العلوم". فيما يؤكد "دايفيد بالتيمور"، مدير معهد "كاليفورنيا للتكنولوجيا California Institute Of Technology" والحائز على جائزة نوبل، على ذلك بشدة، قائلاً: "إننا لا نأمل في الحفاظ على مستوى معيشتنا وأمننا القومي ونهج حياتنا إذا ما لم يتنافس الأمريكيون في مجال العلوم".

كيف لأمريكا أن توقف الهجرة العكسية للعقول؟

لقد سقطت الولايات المتحدة بين شقي الرحى، حيث يتوفر لديها خياران: إما أن تطور المزيد من المواهب داخل الولايات المتحدة...أو أن تستورد المزيد من المواهب من خارجها. إلا أن الخيار الأول لا يحتمل أن يسفر عن أية نتائج إيجابية، على الأقل على المدى القصير، وبالتالي تفتقر أمريكا إلى جذب واستبقاء المزيد من المهاجرين مع التمسك بمخزونها القائم من العقول المولودة محلياً وخارجياً. فلن تحتمل أمريكا ببساطة رؤية رأس مالها البشري يغادر السفينة إلى غير رجعة.

وبالطبع فإن أي مجهود جاد للقضاء علي الهجرة العكسية للعقول لن يشكل حلاً فعالاً لعلاج نقص ازدهار المواهب في هذه الدولة، إلا أن إصلاح قوانين الهجرة والترحيب بالمهاجرين واستهداف الأجانب ذوي القدرات العالية سيعمل على تقوية القوى العاملة الأمريكية الموجهة نحو المعرفة. ولكن مجرد جذب واستبقاء العقول المستوردة لا يمثل سوى نصف الحل، أما النصف الآخر فيتمثل في الارتقاء بكفاءة وجودة أبنائنا وبناتنا ذوى الأصول الأمريكية. ولذلك فعلى الولايات المتحدة أن تركز بشكل متناسق على المشكلات الشائكة مثل: إصلاح التعليم العام وتحديث الجامعات والتشجيع علي دراسة العلوم والتكنولوجيا وما إلي ذلك.

إن أمريكا لن تحتمل المراوغة. فقد تمكن قادتنا لقرون عدة من التغلب على تحديات مشابهة. إلا أن التاريخ يقدم العديد من الأمثلة على دول عظمى انتهت بصورة مأسوية بسبب عدم رغبتها في الاستجابة للتغيير. ولن يصبح بإمكاننا توفير أساساً جيداً للمواهب في أمريكا وتنمية المجتمع الذي سيزدهر فيه أولادنا وأحفادنا سوي من خلال مواجهة تلك التهديدات. فقد حان الوقت لاتخاذ خطوة إيجابية فوراً.

ويمكننا أن نحقق ذلك وما هو أفضل من خلال الإصلاح الثوري لنظام تعليمنا وثقافتنا من أجل أن نظل قوة عظمي قادرة على المنافسة. ومن أجل أن نظل قوة عسكرية عظمي. وقوة خلاقة عظمي صاحبة أكبر اقتصاد في العالم...علينا بثورة تعليمية وثقافية وتنافسية عظمي. فبالتعليم والثقافة نستطيع أن نطور المهارات اللازمة للمنافسة. وتحقيق النجاح وتهميش الفشل.

خاتمة:

يستطيع القارئ والمتأمل والباحث عن الحقيقة أن يتوصل إلي الحقيقة التي مؤداها أن الدول الكبرى أو العظمي تصبح هكذا كبري وعظمي بحجم كبر وعظم عقولها وحسن إدارتها لاستثمارها. وأن الدول ترتقي بقدر ارتقائها بها. وأن شمس القوي العظمي تغرب دائماً عند إهمال العلم والعلماء وتدني البحث العلمي وأدواته فيها...الأمر الذي قد يؤدي إلي انهيار القوي العظمي علمياً واقتصادياً فرأس المال يذهب أينما تذهب العقول والإمبراطوريات والقوي العظمي تقوم علي أيدي النابهين والموهوبين من العلماء والمبدعين. فإن كانت أمريكا عليها أن تستيقظ لوقف الهجرة العكسية للعقول. فالأجدر بنا نحن العرب أن ننتبه ونحسن إدارة استثمار عقولنا الواعدة.